الثالوث القدوس وفقًا لقانون إيمان نيقية

الاعتبارات التمهيدية

أمجد بشارة

قيل في سياق البحث في طبيعة الله إن عقيدة الثالوث، وإن كانت لا تُكتَشَف بالعقل البشري، إلا أنها قابلة للدفاع العقلي متى اتضحت بالإعلان الإلهي. ولا ينبغي أن يغيب هذا عن الأذهان.

ومن اللافت للنظر أن الصيغ الأولى للثالوث كانت من أكثر الصيغ ميتافيزيقيةً وتأمليةً في تاريخ العقيدة. فقد أفرز الجدل مع الأريوسيين ونصف الأريوسيّين بيانًا ودفاعًا عن الحق، ليس فقط على أساس كتابي، بل أيضًا على أساس أنطولوجي. فمثل هذا الجدلي القوي أثناسيوس، رغم كونه كتابيًّا بالكامل وبشدَّة، ورغم انطلاقه من نصوص الكتاب المقدس وإخضاعها لتفسير دقيق، لم يتردَّد في ملاحقة جدليات الأريوسيين ونصف الأريوسيين حتى أدق مغالطاتهم في أعمق خباياها. ومن يشك في ذلك، فليقرأ الخُطَب الأربع لأثناسيوس ضد الأريوسيين ودفاعه عن قانون الإيمان النيقاوي.

وفي بعض أقسام العالم المسيحي، تم الادعاء بأن عقيدة الثالوث يجب أن تُقبل دون أي محاولة لإثبات عقلانيتها أو ضرورتها الجوهرية. وفي هذه الحالة، اعتُبرت عقائد الولادة الأزلية والانبثاق أنها تتجاوز المعطيات الكتابية، وإن لم تُرفض صراحة، فقد اعتُبر أنها تعيق الإيمان بالأقانيم الثلاثة الإلهية وإله واحد، بدلًا من أن تعينه. لكن تاريخ الآراء يُظهر أن هذه الأقسام من الكنيسة لم تكن من أقوى المدافعين عن البيان الكتابي، ولا من أنجح الكنائس في تجنب الانحرافات السابيليانية Sabellian[1] أو الآريوسية Arian[2] أو حتى السوسينية Socinian.[3]

---

[1] السابيلية (Sabellianism): المؤسس: سابيليوس (Sabellius، القرن 3م). الفكرة الرئيسية: رفض الثالوث الأقدس بمعنى "أقانيم متميزة"، واعتبر أن الآب والابن والروح القدس هم أسماء أو أدوار مختلفة للإله الواحد (مثل ممثل يلعب أدوارًا متعددة). أي أن الله يظهر كـ"آب" في الخلق، و"ابن" في التجسد، و"روح قدس" في التنزيل. الرد عليها: أدانها المجمع المسيحي (مثل مجمع نيقية 325م) لأنها تنكر العلاقة الأزلية بين الأقانيم.

[2] الأريوسية (Arianism): المؤسس: أريوس (Arius، 256–336م). الفكرة الرئيسية: أن الابن (المسيح) مخلوق من العدم بإرادة الآب، وليس مساويًا له في الجوهر ("كان هناك وقت لم يكن الابن موجودًا فيه"). الروح القدس منفصلٌ أيضًا وأدنى من الآب. الرد عليها: أدانها مجمع نيقية (325م) وأكدت العقيدة المسيحية أن الابن "مساوٍ للآب في الجوهر" (ὁμοούσιος).

[3] السوسينية (Socinianism): المؤسس: فاوستوس سوسيني (Faustus Socinus، 1539–1604). الفكرة الرئيسية: رفضت ألوهية المسيح، واعتبرته مجرد إنسان مُعلَّم من الله (نفي الثالوث والتجسد الإلهي). رفضت فكرة الكفارة بالدم، ورأت أن خلاص الإنسان يكون بالاقتداء بأخلاق المسيح. الرد عليها: اعتبرتها الكنائس المسيحية (الكاثوليكية والبروتستانتية) هرطقة لأنها تناقض عقيدة الفداء والتجسد.

أما الكنائس التي اتبعت الكتاب المقدس بأكبر قدر من الأمانة وخافت من التأملات البشرية، فهي ذاتها الكنائس التي أدرجت في قوانين إيمانها أكثر الصيغ التحليلية لعقيدة الثالوث التي وُضعت حتى الآن. فالثالوثية النيقاوية مدمجة في معظم قوانين الإيمان في المسيحية الحديثة؛ وهي تُحدّد على وجه الخصوص عقائد الولادة الأزلية والانبثاق مع نتائجها.

أما الكنائس المشيخية، المعروفة بتمسُّكها الشديد بالكتاب المقدس، فإنها تطلب من أعضائها أن يعترفوا بأن "في وحدانية اللاهوت يوجد ثلاثة أقانيم، من جوهر واحد، وقوة واحدة، وأزلية واحدة: الله الآب، الله الابن، والله الروح القدس. الآب ليس من أحد، لا مولود ولا منبثق؛ الابن مولود أزليًّا من الآب؛ الروح القدس منبثق أزليًّا من الآب والابن".[4]

هذا يتضمن ثلاث تمايزات في الجوهر غير المحدود. فلا يمكن لله أن يتأمل ذاته، ويعرف ذاته، ويتواصل مع ذاته، ما لم يكن ذا بنية ثالوثية. فالموضوع يجب أن يعرف ذاته كموضوع، ويُدرك أيضًا أنه يفعل ذلك. وهذا لا يعني ثلاثة جواهر متميزة، بل ثلاث حالات متميزة لجوهر واحد. وبالتالي، يجب أن تكون وحدانية الله من نوع يتوافق مع نوع من التعدد. فالوحدانية في الكائن غير المحدود هي وحدانية مثلثة أو ثالوثية. الله هو وحدة متعددة.

ومن ثم، فإن فهم قانون الإيمان الرسولي بسحب ما ورد في صيغته النهائية في مجمعي نيقية والقسطنطينية يعد واحدًا من أهم النصوص التي يجب أن نحفظها ونعي معانيها.[5]

بالحقيقة نؤمن بإله واحد

تُعلِّم الكتب المقدَّسة عقيدة الوحدانية الإلهية مناقضة للتعدديّة: «اِسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ» (تثنية ٦: ٤)؛ «الرَّبُّ هُوَ اللهُ وَلَيْسَ آخَرُ» (١ملوك ٨: ٦٠)؛ «لَيْسَ إِلَهٌ غَيْرِي» (إشعياء ٤٤: ٦)؛ «الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ» (مرقس ١٢: ٢٩)؛ «أَنَا وَالْآبُ وَاحِدٌ» (يوحنا ١٠: ٣٠)؛ «لَيْسَ إِلَهٌ آخَرُ إِلَّا وَاحِدٌ» (١كورنثوس ٨: ٤)؛ «رَبٌّ وَاحِدٌ، إِلَهٌ وَآبٌ وَاحِدٌ لِلْكُلِّ» (أفسس ٤: ٦)؛ «اللهُ وَاحِدٌ» (غلاطية ٣: ٢٠). وليس هناك خطية أشد تحريمًا وتهديدًا من عبادة الأصنام.[6]

---

[4] Westminster Confession 2.3

[5] William Greenough Thayer Shedd and Alan W. Gomes, Dogmatic Theology, 3rd ed. (Phillipsburg, N.J.: P & R Pub., 2003). 220.

[6] (مزمور 19: 1) «السَّمَاوَاتُ تُحَدِّثُ بِمَجْدِ اللهِ، وَالْفَلَكُ يُخْبِرُ بِعَمَلِ يَدَيْهِ». (إشعياء 45: 18) «لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ الرَّبُّ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ هُوَ اللهُ، مُصَوِّرُ الْأَرْضِ وَصَانِعُهَا. هُوَ أَكْمَلَهَا. لَمْ يَخْلُقْهَا بَاطِلًا. لِلسَّكَنِ صَوَّرَهَا».

وعند الحديث عن وحدانية الله، فإن نوعًا خاصًّا من الوحدانية هو المقصود، أي الوحدانية التي هي مثلثة. وعندما يُشار إلى تثليث الله، فإن نوعًا خاصًّا من التثليث هو المقصود، أي التثليث الذي لا يُكوِّن إلا جوهرًا أو كيانًا واحدًا. فالوحدانية التي تستبعد التثليث ليست المقصودة، وكذلك التثليث الذي يستبعد الوحدانية ليس المقصود.

> "عندما أقول 'واحدًا'، فإن عدد الثالوث لا يُزعجني؛ لأنه لا يُضاعف الجوهر، ولا يُغيِّره، ولا يُقسِّمه. ومرة أخرى، عندما أقول 'ثلاثة'، فإن مفهوم الوحدانية لا يُحرجني؛ لأنه لا يُربك تلك الكيانات الثلاثة، ولا يُوحّدها في فردٍ واحد"[7].[8]

بالتالي، وبالإشارة إلى الله، لا يجوز لنا أن نتحدث عن وحدةٍ محضةٍ وبسيطة، ولا عن ثالوثٍ محضٍ وبسيط؛ بل يجب أن نتحدث عن وحدةٍ في ثالوث، وثالوثٍ في وحدة (انظر Athanasius, Against the Arians 4.13–14). لا يجوز لنا أن نتصوّر "مونا- الوحدة" (monas) ليست في أصلها، وبحسب نظام الطبيعة، ثالوثًا، ثم تصير كذلك. فإن وُجدت "مونا"، وُجد "تریاس- الثالوث" (trias) في الحال. ولا يجوز لنا أيضاً أن نتصوّر "تریاس" ليس في أصله، وبحسب نظام الطبيعة، "مونا"، ثم يصير كذلك. فإن وُجدت "تریاس"، وُجدت "مونا" في الحال.

> أُسبِّحُكَ، أيها الواحد (المونا)، أُسبِّحُكَ، أيها الثالوث (التریاد).
>
> واحد أنت في ثالوث، وثالوث أنت في وحدانية[9].[10]

الثالوث المسيحي ليس هو ثالوث سابيليوس وفيثاغورس، أي ذلك "الوَاحَد الأوَّلي غير الثالوثي" الذي يصير لاحقًا، إما في الزمن أو في ترتيب الطبيعة، ثالوثًا؛ حيث تُدخَل أربعة عوامل أولية ومكوِّنة إلى المسألة، وهي: جوهر واحد وثلاثة أقانيم إضافية. فالله ليس "واحدًا وثلاثة"، بل "واحدًا في ثلاثة". لا يوجد "وَاحَدٌ أوّلي" كائن بذاته ومن دون الثالوث، تُضاف إليه التمايزات الثلاثة كعوامل لاحقة. بل توجد فقط ثلاثة عوامل مكوِّنة في المسألة. لأن الجوهر لا يوجد خارج الأقانيم الثلاثة أو بمعزل عنها، بحيث يُشكِّل عاملًا رابعًا بالإضافة إلى هؤلاء الثلاثة. فال"وَاحَد"، أي الجوهر، لا يوجد

---

[7] Cum dico unum, non me trinitatis turbat numerus, qui essentiam non multiplicat, non variat, nec partitur. Rursum, cum dico tria, non me arguit intuitus unitatis, quae illa quaecumque tria, seu illos tres, nec in confusionem cogit, nec in singularitatem redegit.

[8] Bernard, On Consideration 5.8

[9] سينيسيوس القيرواني (370- 413 م) Synesius of Cyrene، أسقف مدينة بتولمايس (في ليبيا الحالية)، وهو تلميذ هيباتيا الفيلسوفة السكندرية الشهيرة، أسقف ولاهوتي وشاعر مسيحي. ويأتي هذا النص من الترنيمة الثالثة له.

[10] Hymnō se monas, hymno se trias (ὑμνῶ σε μονάς, ὑμνῶ σε τριάς)
monas ei trias ōn, trias ei monas ōn (μονάς εἶ τριάς ὤν, τριάς εἶ μονάς ὤν).

أبدًا في ذاته وبنفسه غير مُثَلَّث، كما في نظرية سابيليوس وفي المخطط الفيثاغوري للـ"تتراكتيس Tetractys"،[11] الذي تبنّاه كوليردج.[12] بل يوجد فقط كما هو في الأقانيم، فقط كما هو مُثَلَّث.

وبالتالي، فإن الجوهر ليس سابقًا، لا في ترتيب الطبيعة ولا في الزمن، على الأقانيم، ولا لاحقًا لها، بل متزامن معها. ومن ثم، فالجوهر ليس عاملًا مكوّنًا منفصلًا بذاته عن الأقانيم، تمامًا كما أن الأقانيم ليست ثلاثة عوامل مكوِّنة منفصلة بذاتها عن الجوهر. فالجوهر الواحد هو في آنٍ واحد ثلاثة أقانيم، والثلاثة الأقانيم هم جوهر واحد. فالثالوث ليس تركيبًا من جوهر واحد وثلاثة أقانيم. وليس جوهرًا بلا تمايزات متّحدًا مع ثلاث تمايزات، بحيث يُشكّل مركّبًا. بل الثالوث بسيط وغير مركّب.

"إذا" قال توِستِن (Dogmatik 2.229)، "تمييزنا بين وضوح النور ودرجات الوضوح المختلفة، لا تعني أن النور مركّب من الوضوح ومن درجات الوضوح". كذلك، فالله ليس مركّبًا من جوهر غير مُثَلَّث وثلاثة أقانيم.

يترتّب على ذلك، بالضرورة، أنّه لا يمكننا أن نتحدّث عن وحدة الله الإلهية بمعزل عن الثالوث، كما يسعى إلى ذلك كلٌّ من الربوبيين والسوسيانيين. فإنّ الثالوث ينتمي إلى الوحدة الإلهية بنفس القدر من الضرورة والجوهرية التي تنتمي بها الأزلية إلى الجوهر الإلهي. يقول أثناسيوس ("Orations 1.17"):

> "إن لم يكن هناك ثالوث مبارك منذ الأزل، بل كانت هناك وحدة فقط في البداية، ثم صارت تنمو لتصبح ثالوثًا، فإنّه يترتّب على ذلك أنّ الثالوث القدوس كان في وقتٍ ما غير كامل، ثم صار كاملًا في وقتٍ آخر؛ غير كاملٍ إلى أن جاء الابن ليُخلَق، كما يزعم الأريوسيون، ثم كامل بعد ذلك".

الاتحاد الضروري بين الوَحدة الإلهيّة والثَلاثيّة الإلهيّة يُشبه الاتحاد بين الجوهر الإلهيّ والصفات الإلهيّة. فجوهر الله ليس سابقًا أو منفصلًا عن صفاته؛ إذ لا يُمكن تصوّر الله كجوهرٍ بلا صفات. الجوهر والصفات متلازمان وغير قابلين

---

[11] الـ Tetractys (التتراكتيس): الرمز السري والعلمي عند الفيثاغوريين (باليونانية: Τετρακτύς، وتعني "الرباعية" أو "المجموعة الرباعية") هو *رمز عددي مقدس* في الفلسفة الفيثاغورية، يتكون من *10 نقاط* مرتبة في 4 صفوف هرمية (1 + 2 + 3 + 4 = 10). اعتبره الفيثاغوريون *أساس الخلق والكون*، وارتبط بعدة مفاهيم. منها:
الميتافيزيقا:
- الصف الأول (1): الوحدة الإلهية (المونـاد).
- الصف الثاني (2): الثنائية (المادة والروح).
- الصف الثالث (3): الثالوث (السماء، الأرض، العالم السفلي).
- الصف الرابع (4): العناصر الأربعة (نار، هواء، ماء، تراب).
وكان الفيثاغوريون يقسمون بـ *التتراكتيس* كرمز للقسم المقدس، ويقولون: "باسم الذي منح روحنا التتراكتيس، المصدر الجوهري للطبيعة الأبدية!" ولا يُخلط بينه وبين تتراغراماتون (YHWH) في اليهودية، رغم اشتراكهما في فكرة "الرباعية".

[12] Works 5.18–19, 404

للانفصال. لا يُمكن تصوّر الله على أنه يتطوّر من جوهرٍ بلا صفات إلى جوهرٍ بصفات. فالله ليس "جوهرًا وصفات"، بل هو "جوهرٌ في صفات". إنّ الجوهر بكامله حاضر في كلّ صفة؛ كما أنّ الجوهر بكامله حاضر أيضًا في كلّ أقنوم من أقانيم الثالوث. وكما لا يمكننا منطقيًّا أن نُدرك أو نُناقش الجوهر الإلهيّ بمعزلٍ عن الصفات الإلهيّة، كذلك لا يمكننا منطقيًّا أن نُدرك أو نُناقش الوَحدة الإلهيّة بمعزلٍ عن الثَلاثيّة الإلهيّة.

وحدة الله فريدة. إنها الوحدة الوحيدة من نوعها. الإنسان الفرد هو واحد؛ وأي مخلوق أو شيء فردي هو واحد. ولكن هناك آخرين مثله، كل منهم هو أيضًا واحد عدديًّا. أما الله فليس مجرد واحد، بل هو الوحيد؛ ليس فقط واحد unus (أونوس)، بل هو الوحيد المتفرّد unicus (أونيكوس). ليس هو واحدًا من نوع أو واحدًا بالمقارنة مع آخر من نفس الجنس. الله هو إله واحد والإله الوحيد. يجب أن يُربط مفهوم الفرادة بمفهوم الوحدة في حالة الكائن الأعظم.

الله ليس وحدة، بل وحدانية. فالوحدة، كالحجر أو العصى، تتميز بمجرد الفردية. إنها لا تقبل تمايزًا داخليًّا، ولا تقدر على تلك الثلاثية الكامنة الضرورية للمعرفة الذاتية والوعي الذاتي. الفردية المجردة لا تتوافق مع الشركة، وبالتالي لا تتوافق مع الشركة الإلهية والغبطة. الله مغبوط فقط بكونه عارفًا لذاته ومتواصلًا مع ذاته. فالموضوع الذي لا يملك موضوعًا آخر لا يمكنه اختبار المحبة أو الفرح. المحبة والفرح هما اجتماعيان. إنهما يفترضان أكثر من شخص واحد.

التعليم الكتابي عن كمال الله يدعم وجود تمايزات في الجوهر الإلهي؛ فملء الكينونة يستلزم تنوعًا في الوجود. الوحدة المحدودة لا تحتوي على تعددية أو تنوع. إنها تفتقر إلى أنماط الوجود. الفقر والجدب يميزان الوحدة، والغنى والخصوبة يميزان الوحدانية. هذا الـ plērōma πλήρωμα أو الكمال في الجوهر الإلهي يُشار إليه في الآيات التالية: "مُمْتَلِئِينَ بِكُلِّ مِلْءِ اللهِ" (أفسس ٣: ١٩)، و"فَإِنَّهُ فِيهِ سُرَّ أَنْ يَحِلَّ كُلُّ الْمِلْءِ" (كولوسي ١: ١٩)، و"فَإِنَّهُ فِيهِ يَحِلُّ كُلُّ مِلْءِ اللاَّهُوتِ جَسَدِيًّا" (كولوسي ٢: ٩). يميز أمبروسيوس (Concerning Faith 5.1) الفرق كما يلي: "التفرد يخص الأقنوم، والوحدة تخص الطبيعة."[13] ويقول تويستن (Dogmatics 2.228):[14]

> "بما أن التعدّديّة تكمن في عقيدة الثالوث، فهي لا تتناقض مع الوحدة التي تخص الجوهر الإلهي، بل فقط مع التفرُّد الذي لا يمكن التوفيق بينه وبين الكمال الحي والغبطة المنسوبة إلى الله في الإعلان، والتي يمتلكها الله في ذاته وبشكل مستقل عن المحدود."

ويلاحظ أوين (Doctrine of the Trinity Vindicated) أن:

[13] Singularitas ad personam pertinet, unitas ad naturam.

[14] William Greenough Thayer Shedd and Alan W. Gomes, Dogmatic Theology, 3rd ed. (Phillipsburg, N.J.: P & R Pub., 2003). 220

"قد يكون صحيحًا أنه لا يمكن أن يوجد سوى أقنوم واحد في جوهر واحد، عندما يكون الجوهر محدودًا ومقيدًا، ولكن ليس عندما يكون الجوهر غير محدود."

عن هذا يكتب باسليوس أسقف قيصرية:

"عندما سلمنا ربنا صيغة الإيمان بالآب والابن والروح القدس، لم يقرن هذه النعمة بعدد... أما العدد فقد اخترعه العقل كوسيلة لحصر الكميات" (عن الروح القدس 18: 44).[15]

آب ضابط الكل

ألوهية الله الآب لا جدال فيها، ولذلك فالحاجة إلى تقديم البرهان عليها أقل. تُنسب إليه الأسماء الإلهية، والصفات، والأعمال، والجدارة بالعبادة.

يشير مصطلح "الآب" إلى علاقة جوهرية وأزلية تخص الأقنوم الأول في الثالوث؛ فالله في ذاته، وبغض النظر عن أي علاقة بالخليقة، هو آب: آب الابن. ولو كان الله أبًا بالدرجة الأولى بسبب علاقته بالبشر والملائكة، وليس بسبب علاقته بالأقنوم الثاني في اللاهوت، لكانت أبويته تبدأ في الزمن، وقد تنتهي فيه أيضًا. فإن وُجد وقت لم يكن فيه الله آبًا للابن، فقد يوجد وقت يكف فيه عن أن يكون آبًا. يقول كيرلس الأورشليمي في (Catecheses 11.8):

"إنه لأعظم تجديف أن يُقال إن الله صار أبًا بعد مشورة أُجريت في الزمن، لأن الله لم يكن أولًا بلا ابن ثم صار في الزمن أبًا".

لا ينبغي الخلط بين الأبوة الأقنومية أو الثالوثية لله الآب من جهة علاقته بالابن، وبين الأبوة العناوية[16] لله الثالوث من جهة علاقته بالخليقة. فواحد فقط من الأقانيم الإلهية هو الآب الثالوثي؛ أما الأقانيم الثلاثة في جوهر واحد، فهي التي تُكوِّن الأب العناوي والعام. الله المثلث الأقانيم هو عمومًا أب البشر والملائكة من جهة الخلق، وبشكل خاص أب المختارين من جهة الفداء. ومن ثم، فإن مصطلح "الآب" عندما يُطلق على الله يحمل دلالتين: فقد يشير إلى الجوهر الإلهي في أنماطه الثلاثة، أو في نمط واحد فقط. والعبارة الأولى في الصلاة الربانية تمثل المثال الأول؛ فعندما يقول الناس "أبانا الذي في السماوات"، فهم لا يخاطبون الأقنوم الأول في اللاهوت الإلهي بمعزل عن الثاني والثالث، بل يخاطبون الله

[15] أنصح بقراءة الفصل 18 بالكامل من كتاب الروح القدس للقديس باسيليوس الكبير لفهم هذا الأمر بتعمق.
[16] الخاصة بالعناية الإلهية.

المعلن، لا الله غير الثالوثي في الديانات الوثنية، بل الله الثالوثي، الذي هو أب عناوي لجميع البشر، وأب فدائي للمؤمنين.

وإذا قصد الإنسان عمدًا وبوعي في صلاته أن يستثني من عبادته الابن والروح القدس، فإن طلبته لا تُقبل: "الَّذِي لَا يُكْرِمُ الِابْنَ لَا يُكْرِمُ الْآبَ الَّذِي أَرْسَلَهُ" (يوحنا ٥: ٢٣). وقد لا يكون لدى الإنسان في ذهنه تمييز واضح ورسمي للأقانيم الثلاثة عند نطق هذه الطلبة، وفي هذه الحالة لا يستثني عمدًا أي أقنوم أو أقانيم؛ ومع ذلك، فإن الطلبة تصعد إلى الثالوث الإلهي، لا إلى أقنوم واحد على نحو حصري؛ والإجابة تعود إليه من الله الثالوث، لا من أقنوم منفرد على نحو حصري.

يقول Witsius Lord's Prayer, diss. 7:

> إنه تعليم يتمسك به جميع اللاهوتيين بثبات، أن الآب لا يمكن أن يُدعى بطريقة صحيحة دون أن يُدعى في الوقت نفسه الابن والروح القدس، لأنهم واحد في الطبيعة والمجد. ولا يمكن، في اعتقادي، إنكار أنه إذا صرفنا النظر عن تمييز الأقانيم ونظرنا فقط إلى ما هو مشترك بين الأقانيم الثلاثة في اللاهوت، فإن الله يمكن أن يُدعى أبانا. ومع ذلك، أوافق بكل سرور أولئك المفسرين الذين يرون أن آب ربنا يسوع المسيح هو المخاطَب على وجه الخصوص في الطلبة الأولى.

يقول أوغسطينوس (On the Trinity 5.2): "ما هو مكتوب: 'اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلَهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ' لا ينبغي أن يُفهم كما لو أن الابن مُستَثنَى أو الروح القدس مُستَثنَى. هذا الرب الواحد، إلهنا، ندعوه بحق أيضًا أبانا" (انظر supplement 3.4.10).

مصطلح "الآب" يشير إلى الثالوث في يوحنا ٤: ٢١، ٢٣–٢٤:

> "وَلَكِنْ تَأْتِي سَاعَةٌ، وَهِيَ الْآنَ، حِينَ لَا فِي هَذَا الْجَبَلِ، وَلَا فِي أُورُشَلِيمَ، تَسْجُدُونَ لِلْآبِ... وَلَكِنْ تَأْتِي سَاعَةٌ، وَهِيَ الْآنَ، حِينَ السَّاجِدُونَ الْحَقِيقِيُّونَ يَسْجُدُونَ لِلْآبِ بِالرُّوحِ وَالْحَقِّ، لِأَنَّ الْآبَ طَالِبٌ مِثْلَ هَؤُلَاءِ السَّاجِدِينَ لَهُ. اللهُ رُوحٌ، وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهُ فَبِالرُّوحِ وَالْحَقِّ يَنْبَغِي أَنْ يَسْجُدُوا".

هنا، مصطلح "الآب" مرادف لـ"الله" الذي هو "رُوحٌ"، وهو موضوع العبادة الحقيقي. ولكن المسيح، عند ذكره لموضوع العبادة، كان يقصد إله الإعلان، لا إله الديانة الوثنية –إله ثالوثي كما هو في الكتاب، لا إله فردي– نفس الإله الذي أمر جميع الناس أن يؤمنوا ويتعمدوا باسمه الثالوثي وكيانه الثالوثي. فكرة المسيح عن الله كأب كوني كانت ثالوثية. ففي الحدس واللاهوت، الآب والابن والروح القدس هم إله واحد، والأب السماوي للملائكة والبشر.

اللقب "الآب"، الذي يصف العلاقة بين الله ومخلوقاته، ينطبق على كل واحد من الأقانيم الإلهية، كما ينطبق على الأقانيم الثلاثة، إله واحد. فالعلاقة "الأبوية" بالخليقة هي علاقة حقيقية لكل من الابن والروح القدس كما هي للآب من جهة الطبيعة الإلهية؛ إذ إن هؤلاء الأقانيم هم، كلٌّ على حدة وبالاتحاد، آب للكون؛ آب في الخلق، وفي التدبير، وفي الحماية. ويُنبأ عن الابن بصفته المسيّا في لطفه الحامي ورحمته بأنه "أَبٌ لِلْيَتَامَى" (مزمور ٦٨: ٥-٦؛ إشعياء ٩: ٦). (Kidd, Eternal Sonship, chap. 13)

يُمكن للمؤمن بالثالوث، عند استخدامه للطلبة الأولى في الصلاة الربانية، أن يكون في ذهنه الأقنوم الأول على وجه الخصوص ويُخاطبه؛ لكن هذا لا يجعل صلاته غير ثالوثية. فهو يُخاطب هذا الأقنوم بصفته ممثلًا للثالوث. وينطبق الأمر نفسه كلما خاطب الابن أو الروح القدس على وجه التحديد. فإذا خاطب الله الابن، فإن الله الابن يتضمّن الله الآب. كل أقنوم إلهي يُفترض ويُشير إلى الآخرين. كل أقنوم يُمثّل الآخرين. وبالتالي، فإن الصلاة إلى أي واحد من الأقانيم الإلهية الثلاثة هي، ضمنًا وفعليًّا، صلاة إلى الثلاثة جميعًا. لا يمكن لإنسان أن يُكرم الابن دون أن يُكرم الآب أيضًا. يقول المسيح: "الَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الْآبَ" (يوحنا ١٤: ٩). وبالمثل، من يُصلّي إلى الابن يُصلّي إلى الآب أيضًا.

لن يتشتّت ذهن المتعبّد بسبب اعتبار وجود ثلاثة أقانيم إلهية، إذا تذكّر أن الجوهر الإلهي الكامل موجود في كل واحد من الأقانيم، بحيث إن عبدَ واحدًا منهم فقد عبد الجميع. ومع غريغوريوس النزينزي، يمكنه أن يقول: "لا أستطيع أن أفكّر في الكائن الأسمى الواحد دون أن أُحاط بمجد الأقانيم الثلاثة؛ ولا أستطيع أن أُميّز الأقانيم الثلاثة دون أن أعود إلى وحدة الجوهر".

ويقول أمبرسيوس:

> "من يذكر اسم واحد من الأقانيم فقد ذكر الثالوث، فإذا ذكرت اسم المسيح فأنت ضمنًا تُشير إلى الله الآب الذي به الابن قد مُسح، والابن نفسه الذي مُسح، والروح القدس الذي تمت به المسحة... وإذا تكلمت عن الروح فأنت تذكر الله الآب الذي منه ينبثق الروح، وتذكر أيضًا الابن لإنه روح الابن".[17]

الأُبوّة الأقنومية أو الثالوثية لله، تمييزًا عن الأُبوّة العنايتية، مذكورة في يوحنا ١٧: ٥: "وَالْآنَ مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا الْآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ". هنا، يُخاطب المسيح الآب وحده، الأقنوم الأول من اللاهوت الإلهي على وجه الحصر. لم يُخاطب الثالوث، لأنه لم يُخاطب نفسه أو الروح القدس. وبخصوص هذه الأُبوّة الثالوثية، يقول الابن "أبي"، لا "أبانا" (١٤: ٢٧؛ ١٥: ١، ٨؛ وغيرها من المواضع).

[17] NPNF, second series, vol. x., p. 99.

تُثبت صيغة المعمودية والتسابيح في العهد الجديد بما لا يَدَع مجالًا للشك أن الأُبوّة هي علاقة جوهرية وأزلية في الله. فالطقس الذي يُدخل الإنسان إلى ملكوت الله لا يُجرى بأسماء ثلاثة تُشير فقط إلى مواقف وقتية ومُفتعلة للكائن الأسمى. كما أن البركة الإلهية لا تُستدعى من خلال ثلاثة ألقاب تُعبّر عن هذه المواقف فحسب. فالمعمودية والاستدعاء هما فعلان تعبديان، والعبادة تتعلّق بكينونة الله الجوهرية والأزلية.

عبارة "الله غير المولود" تتضمّن وتُشير إلى عبارة "الله المولود". وهذه لا تدلّ على أكثر من عبارة "الله الابن"، حيث تحتوي الأخيرة على الاسم، بينما تحتوي الأولى على الصفة. يُعلّق كليمنضس الإسكندري (Miscellaneous Writings 5.12) قائلًا:

> "يقول يوحنا الرسول إنّه لم يرَ أحدٌ الله قط. الله الابن الوحيد، الذي هو في حضن الآب، هو خبّر".

ويقتبس إيريناوس (Against Heresies 4.20.11) هذا النص بنفس الصيغة: "الله الابن الوحيد، الذي هو في حضن الآب، هو خبّر". هذا الاستخدام الآبائي لعبارة "الإله الوحيد" يدعم بقوة قراءة "monogenēs theos μονόγενης θεός" في يوحنا ١: ١٨، وهي القراءة التي تحظى بدعم المخطوطات א، B، C، L، البشيطة، القبطية، والإثيوبية، والتي يقول عنها Tischendorf (الطبعة الثامنة): "بلا شك [هذه القراءة] تحمل ثقل الشهادات" 134. وقد تبنّى Westcott and Hort هذه القراءة.

خالق السماء والأرض، ما يرى وما لا يرى

إن خلق العالم هو عمل ثالوثي. ويتضح هذا منذ بداية سفر التكوين، في تكوين ١: ٢، حيث يُقدَّم عمل الروح القدس في الخلق (انظر أيضًا مزمور ١٠٤: ٣٠؛ إشعياء ٤٠: ١٣). ومع ذلك، لا يمكننا أن نقدّر المعنى الكامل لسردية التكوين إلا من خلال الإعلان الذي نسمّيه العهد الجديد. فالعهد الجديد يصرّح بأن الله خلق العالم (أفسس ٣: ٩)، وهنا يشير اسم "الله" بوضوح إلى الآب. لكننا نقرأ أيضًا أن الابن هو الذي خلق العالم (يوحنا ١: ٣؛ كولوسي ١: ١٦). وكما تُعلّمنا الأسفار المقدسة أن الآب والابن والروح اشتركوا في خلق العالم، فإنها أيضًا تصوّرهم وهم يعملون معًا لخلاص العالم، وهو ما يُسمّيه العهد الجديد "إعادة خلق العالم". فالافتداء يتضمّن خليقة جديدة (غلاطية ٦: ١٥؛ ٢كورنثوس ٥: ١٧)، وسماءً جديدة (٢بطرس ٣: ١٣)، وأرضًا جديدة (رؤيا ٢١: ١)، وعهدًا جديدًا (عبرانيين ٩: ١٥)، وأورشليم جديدة (رؤيا ٢١: ٢). في المسيح، قد صارت كل الأشياء جديدة.

عندما يُوصَف العمل الثالوثي في الفداء بأنه "خليقة جديدة"، فإن ذلك يُشير إلى تكرار وتجديد للعمل الثالوثي في الخلق الأول. بمعنى آخر، إن الله يعمل بطرق متشابهة في الخلق والفداء. ماذا يعني هذا بشكل ملموس؟ تأمّل ما يقوله

بولس: لم يُخلَق العالم فقط بواسطة المسيح، بل "له" أو "نحو" المسيح (كولوسي ١: ١٦).[18] ماذا يُشير إليه ذلك؟ إن مفتاح فهم معنى أن الخليقة الأولى كانت "لأجل" المسيح قد يُرى في عقيدة الخليقة الجديدة. ففي عقيدة الفداء، نرى أن الله خلّص عالمًا من البشر وأعطاهم للمسيح (يوحنا ١٧: ٢، ٦، ٩، ١١، ٢٤؛ مزمور ٢: ٨). وكذلك، يخبرنا يسوع أن البشر لا يقدرون أن يأتوا إليه إلا إذا جذبهم الآب (يوحنا ٦: ٤٤، ٤٥، ٦٥).[19]

نؤمن برب واحد يسوع المسيح

كانت ألوهية الله الابن موضوعًا لأحد أعظم الجدالات في الكنيسة الآبائية. لكن العمل الذي أُنجز آنذاك في فحص الأسفار المقدسة لم يكن بحاجة إلى إعادة. فقد آمنت المسيحية، منذ العصر النيقي وما قبله، بالطبيعة الإلهية لابن الله.

التسمية "الابن" المعطاة للشخص الثاني في الثالوث تشير إلى علاقة جوهرية أزلية في الكينونة، لا إلى علاقة مؤقتة مُكتَسَبة في الزمن. وهذا ما يُثبَت من خلال ما يلي:

1. المصطلح المقابل "الآب" المطلق على الأقنوم الأول؛ إذ يجب أن تُؤخذ كلا التسميتين بنفس الدلالة. فإن كان أحد الأقنومين أزليًّا، فكذا الآخر؛ وإن كانت إحدى التسميتين تشير إلى علاقة زمنية، فكذا الأخرى. لقد جادل أريوس بأن الله لم يكن دائمًا أبًا، وأن الابن لم يكن دائمًا ابنًا. أما النيقيّون فقد تمسّكوا بعكس ذلك (راجع: Socrates, History 1.6؛ Athanasius, Against the Arians 1.5, 9؛ Gangauf, Augustine's Doctrine of the Trinity, 311–12).

2. الأوصاف "أزلي"، و"خاص" (ἴδιος، يُنطق: إيديوس)، و"الوحيد المولود"، التي تُحدّد بنوّة الأقنوم الثاني وتُميّزها عن بنوّة الملائكة والبشر.

3. من خلال استخدام هذا اللقب في صيغة المعمودية والبركات. فإن ألوهية ابن الله مُثبَتة بغزارة في الأسفار المقدسة. والانطباع العام الذي يُحدثه العهد الجديد يُؤيّد ألوهية المسيح. فإن كان الإنجيليون والرسل قد قصدوا أن يُعلّموا العالم بأن المسيح هو مجرد إنسان أو ملاك مُمجَّد، فإنهم بلا شك قد استخدموا تعبيرات لا تُناسب نقل مثل هذه الحقيقة.

---

[18] يرجى ملاحظة أنني أتناول هنا منظورًا واحدًا فقط من المنظورات الثالوثية حول الخلق. يبدو لي أنه المنظور الأوضح والأغنى، لكن توجد مناظير أخرى. فعلى سبيل المثال، يكرر الكتاب المقدس القول بأن الله خلق العالم بواسطة المسيح. هذا التصريح لا يُشرح بتفصيل، لكن حقيقة أن الابن يُدعى "كلمة الله"، وأن خلق العالم يُنسب إلى "الكلمة"، تُشير إلى أنه يمكننا أن نعتبر الآب هو الذي ينطق بالكلمة، والابن هو الكلمة المنطوقة، والروح هو نَفَس الله الذي يحمل الكلمة إلى وجهتها. لدينا أيضًا أمثلة متكررة تُظهر الآب بوصفه المُخطِّط، والابن بوصفه المُنفِّذ، والروح بوصفه المُطبِّق. هذه الأوصاف الثالوثية وغيرها لها علاقة بالخليقة والفداء.
James Jordan يقترح جوانب ثالوثية أخرى للخلق في كتابه "Creation in Six Days: A Defense of the Traditional Reading of Genesis One" (Moscow, Idaho: Canon Press, 1999).

[19] Ralph A. Smith, Trinity and Reality: An Introduction to the Christian Faith (Moscow, ID: Canon Press, 2004). 56.

كان المصطلح الحاسم لعلاقة الابن بالآب هو "مساوٍ في الجوهر" أو "واحد في الجوهر" (ὁμοούσιος، يُنطق: هوموأوسيوس). فإن لا شبه الأريوسيين، ولا الأريوسيين، ولا السوسينيين، يُقرّون بأن جوهر الابن هو نفس جوهر الآب بعينه. إنه يُشبهه، لكنه ليس هو. الابن يمتلك لاهوتًا، لا ألوهية، ويُستخدَم مصطلح "اللاهوت" هنا بمعناه الفضفاض، كما حين يتحدث الكُتّاب عن "اللاهوت في الإنسان– التأله" للدلالة على شبهه بالله.

تُثبَت ألوهية الابن من خلال إطلاق اسم "الله" عليه: "كُرْسِيُّكَ يَا اللهُ إِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ" (مزمور ٤٥: ٦، ٨). وقد اقتُبِس هذا النص وتأكد في عبرانيين ١: ٨–٩: "وَأَمَّا عَنِ الِابْنِ: «كُرْسِيُّكَ يَا اللهُ إِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ»". كما ورد: "لأَنَّهُ يُولَدُ لَنَا وَلَدٌ... وَيُدْعَى اسْمُهُ... إِلهًا قَدِيرًا" (إشعياء ٩: ٦).

وفي إرميا ٢٣: ٥–٦ يُدعى "الغصن" الخارج من داود "الرَّبُّ بِرُّنَا" (يهوه). ويُقال نفس الشيء عن المسيّا في إرميا ٣٣: ١٥–١٧، حيث تُمثّل أورشليم = الكنيسة = المسيح (١كورنثوس ١٢: ١٢؛ غلاطية ٣: ١٦) (Speaker's Commentary on Jer. 33:16).

وفي إشعياء ٧: ١٤ يُدعى المسيّا "اللهَ مَعَنَا"، وهذه النبوّة كما وردت قد تحققت في ميلاد يسوع المسيح بحسب متى ١: ٢٣.

وفي ملاخي ٣: ١ يُدعى الملاك (ἄγγελον، يُنطق: أنجيلون) الآتي إلى هيكله الخاص (ναὸν ἑαυτοῦ، يُنطق: ناون هياوتو) "السيد" (אֲדוֹן، يُنطق: أدون)، ويُعلّم مرقس ١: ٢ ولوقا ١: ٧٦ أن هذا هو يسوع المسيح. ويُسمّى يوم مجيء هذا الملاك "يَوْمَ الرَّبِّ الْعَظِيمِ وَالْمَخُوفِ" (يهوه) في ملاخي ٤: ٥.

في العهد الجديد، توجد مقاطع يُطبَّق فيها ما قيل في العهد القديم عن يهوه على يسوع المسيح، في عبرانيين ١: ١٠–١١، يُنسَب إلى المسيح ما نُسِب إلى يهوه في مزمور ١٠٢: ٢٦. وفي يوحنا ١٢: ٤٠–٤١، يُؤكَّد أن كلام إشعياء ٦: ٩–١٠ عن يهوه يُشير إلى يسوع المسيح. وعند مقارنة إشعياء ٤٥: ٢٣ برومية ١٤: ١٠–١١ (Textus Receptus)، يتبيّن أن كرسي دينونة الله هو كرسي دينونة المسيح.[20]

كما تُثبِت مقارنة يوئيل ٢: ٣٢ برومية ١٠: ١٣ أن اسم يهوه هو اسم المسيح. وفي أفسس ٤: ٨–٩، يُعطي المسيح المواهب التي أعطاها يهوه في مزمور ٦٨: ١٨.

يحتوي يوحنا ١: ١ على برهان قاطع على ألوهية ابن الله: "θεὸς ἦν ὁ λόγος" (theos ēn ho logos). إن حذف أداة التعريف مع theos يُحوّل الكلمة إلى معنى مجرد، يُشير إلى النوع "الطبيعة الإلهية ذاتها".

[20] يقرأ Lachmann، Tischendorf، Hort، Peshitta، Vulgate، א، A، B، C، وD الكلمة "theou"156 في رومية ١٤: ١٠

استخدام الفعل ἦν يُشير إلى كينونة غير مخلوقة، في مقابل الكينونة المخلوقة التي يُعبَّر عنها في الآية ٣ بالفعل ἐγένετο (يُنطق: egeneto). كما أن الوجود الشخصي المتميّز للوغوس يُعبَّر عنه بعبارة πρὸς τὸν θεόν (يُنطق: pros ton theon)، وهي مختلفة تمامًا عن σὺν τῷ θεῷ (يُنطق: syn tō theō). فالأولى، مع حالة النصب، تُشير إلى التعايش إلى جانب آخر؛ أما الثانية، مع حالة الجر، فتُشير إلى اندماج في جوهر واحد، بحيث تُقصي التميّز الشخصي.

وفي العبارة houtos estin ho alēthinos theos οὗτός ἐστιν ὁ ἀληθινὸς θεός في ١يوحنا ٥: ٢٠، فإن houtos οὗτός يُشير بشكل طبيعي إلى Ἰησοῦ Χριστῷ (يُنطق: iēsou christō). فإن "الحياة الأبدية" لا تُنسَب أبدًا إلى الآب في كتابات يوحنا، لكنها تُنسَب كثيرًا إلى الابن (راجع: يوحنا ١: ٤؛ ١١: ٢٥؛ ١٤: ٦؛ ١يوحنا ١: ٢؛ ٥: ١١-١٢).

يُدعى المسيح theos θεός في رومية ٩: ٥. إن تحويل هذا النص إلى تمجيد، من خلال علامات الترقيم، كما فعل بعض المحرّرين المعاصرين للنص، خلافًا للفهم شبه الإجماعي للكنيسة القديمة والوسطى والحديثة، يُعدّ مثالًا صارخًا لمحاولة مواءمة الكتاب المقدس مع النظرة الأريوسية لشخص المسيح. فالمسيح هو المرجع الواضح للنص، إذ لم يُذكر أي شخص آخر في الآيات السابقة؛ وho ōn ὁ ὢν هو جملة وصفية، لا تبدأ فكرة جديدة بل تُكمل ما سبق؛ وكلمات to kata sarka τὸ κατὰ σάρκα، التي تشير إلى الطبيعة البشرية للمسيح، تتطلّب مقابلةً تشير إلى الطبيعة الإلهية، كما في رومية ١: ٣.

ويُدعى المسيح theos θεός في تيطس ٢: ١٣: "مُنْتَظِرِينَ الرَّجَاءَ الْمُبَارَكَ وَظُهُورَ مَجْدِ اللهِ الْعَظِيمِ وَمُخَلِّصِنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ" (الترجمة المنقَّحة). إن كون theou θεοῦ وsōtēros σωτῆρος يُشيران إلى نفس الشخص يُثبَت بالآتي: (أ) إن epiphaneian ἐπιφάνεια لا تُستخدم أبدًا عن الآب، و"ظهور" المسيح هو الأمر المنتظَر؛ (ب) العبارة التالية تتحدث عن "الله العظيم والمخلّص" بأنه "بَذَلَ نَفْسَهُ"؛ و(ج) إن استخدام megalou μεγάλου يبدو غير ضروري إن أُطلِق على الآب، إذ لا أحد يُشكّك في ملاءمة هذا اللقب للأقنوم الأول.

إن هتاف توما في يوحنا ٢٠: ٢٨ ho kyrios mou kai ὁ κύριός μου καὶ ὁ θεός μου ho theos mou يُثبِت ألوهية المسيح. فقد وُجِّه هذا القول إلى المسيح: eipen autō εἶπεν αὐτῷ. واستخدام أداة التعريف ho ὁ بدلًا من أداة التعجّب ō ὦ يُظهِر أنه ليس تعبيرًا عن الدهشة.

"كَنِيسَةَ اللهِ الَّتِي اقْتَنَاهَا بِدَمِهِ الْخَاصِّ" (أعمال ٢٠: ٢٨). القراءة theou θεοῦ وردت في B، א، Peshitta، وVulgate، وتبنّاها Textus Receptus، Mill، Knapp، Scholz، Alford،

وHort؛ أما القراءة κυρίου kyriou فوردت في A، C، وD، وتبنّاها Griesbach، Wettstein، Lachmann، وTischendorf.

وفي ١تيموثاوس ٣: ١٦ "وَبِالِاتِّفَاقِ عَظِيمٌ هُوَ سِرُّ التَّقْوَى: اللهُ ظَهَرَ فِي الْجَسَدِ"، القراءة θεός theos مدعومة من D3، K، L، ومعظم المخطوطات الصغرى، وTextus Receptus، وMill، وScholz؛ أما القراءة ὅς hos فمدعومة من א، A، C΄، Coptic، Sahidic، Gothic، Lachmann، Tischendorf، Tregelles، Alford، وHort، وتشير بلا جدال إلى المسيح؛ كما أن الصفات المنسوبة إليه لا تليق بأي مخلوق.

يُثبِت فيلبي ٢: ٦ ألوهية المسيح. فلا يمكن للمسيح أن يكون في "صُورَةِ اللهِ" دون أن يمتلك طبيعة الله؛ كما أن "صُورَةَ عَبْدٍ" تُشير إلى طبيعة العبد. وكان في صورة الله قبل أن يكون في صورة عبد. ولم يكن "اخْتِلَاسًا" (ἁρπαγμὸν، يُنطق: harpagmon أن يُعادل المسيح نفسه بالله.[21]

يُطلَق الجمع "آلهة" أحيانًا على المخلوقات: كالملائكة والقضاة؛ لكن المفرد "الله" لا يُطلَق إلا على الله ذاته. واستخدام المفرد عن المسيح يُثبِت ألوهيته.[22]

ابن الله الوحيد

اصطلاح "ابن الله" كما يُستخدم بمعنى مجازي، إذا كان، يمكن لله أن يتخذ تجاه مخلوقاته العاقلة علاقة الأبوة، فإن هذه المخلوقات يجب أن تكون قادرة على أن تصير، بمعنى ما، أبناء أو أولادًا لله."

وإذا أخذنا الاصطلاح بمعناه الأسمى، فإن الإنسان لا يصير ابنًا لله إلا في النظام الفائق للطبيعة، بالنعمة ومن خلال عقيدة التبرير. قارن: "طُوبَى لِصَانِعِي السَّلاَمِ، لأَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللهِ يُدْعَوْنَ" (متى ٥: ٩). ولكن، كما تُشير بوضوح الأسفار المقدسة، فإن بنوّة المخلوق الفائقة للطبيعة ليست بنوّة بالمعنى الحرفي للكلمة؛ بل هي مؤسسة على التبنّي الذي للابن الوحيد.[23]

[21] أما التفسير المقترَح "شيء يُتمسَّك به" فكان يتطلّب استخدام ἅρπαγμα harpagma.

[22] William Greenough Thayer Shedd and Alan W. Gomes, Dogmatic Theology, 3rd ed. (Phillipsburg, N.J.: P & R Pub., 2003). 257.

[23] Adoptio filiorum, υἱοθεσία. On supernatural adoption, see Sollier in the Catholic Encyclopedia, I, 148 sqq.

ومع أن هذه تتمايز بوضوح عن البنوة الطبيعية؛ إذ إن الكتاب المقدس يُرجعها إلى كون المخلوق "مولودًا من الله"،[24] بل ويُسميها مشاركة في الطبيعة الإلهية،[25] إلا أنه يجب التنبيه إلى أن المفهومين الأخيرين لا يفقدان طبيعتهما العرضية والتشابهية، لأنهما مشروطان بالنعمة المقدِّسة، التي تُعد الأثر الصوري الرئيسي للبنوّة بالتبنّي."[26]

السؤال المهم الذي ينبغي علينا أن نُجيب عنه هنا هو ما إذا كان اصطلاح "ابن الله" يُطلق على المسيح كمصطلح مشابه لبنوتنا لله فقط. ففي هذه الحالة، ورغم أنه سيفوق باقي أبناء الله بالتبنّي، إلا أن يسوع لن يكون أكثر من "الأول بين متساوين primus inter pares". إن تفوّقه على جميع البشر يظهر بوضوح من حقيقة أنه وحده يُدعى في الكتاب المقدس: "ὁ υἱὸς τοῦ Θεοῦ"– الابن الله.

في بعض النصوص يُشار إلى مخلوقات فقط على أنهم "أبناء الله"، ولكن في جميع هذه النصوص، يكون الموضوع إما بصيغة الجمع،[27] أو تعبيرًا جماعيًّا،[28] أو مفردًا غير محدد يُقصد به الجمع.[29]

والنص الوحيد الذي يبدو وكأنه استثناء هو (٢صموئيل ٧: ١٤): "أَنَا أَكُونُ لَهُ أَبًا وَهُوَ يَكُونُ لِيَ ابْنًا"، ولكن بولس الرسول يفسّر هذا النص صراحةً على أنه يُشير بشكل رمزي إلى المسيح: "لِمَنْ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ قَالَ قَطُّ: ... أَنَا أَكُونُ لَهُ أَبًا وَهُوَ يَكُونُ لِيَ ابْنًا؟" (عبرانيين ١: ٥).

في ضوء هذه النصوص، لا يمكن لأحد أن يُنكر أن المسيح هو ابن الله بمعنى أسمى من أي ملاك أو إنسان. ولكن يبقى هناك شك فيما إذا كان اصطلاح "ابن الله" يُطلق عليه كاسم علم، أم كمُسمّى فقط؛ أي هل هو ابن الله بالمعنى الحرفي، أم بالمعنى المجازي، أي بالتبنّي."

---

[24] Regeneratio, Gr. παλιγγενεσία. Cfr. J. Pohle, s. v. “Wiedergeburt,” in Herder’s Kirchenlexikon, XII, 1468 sqq., Freiburg 1901.

[25] راجع: رسالة بطرس الرسول الثانية 1: 4 “θείας κοινωνοὶ φύσεως

[26] Joseph Pohle and Arthur Preuss, The Divine Trinity: A Dogmatic Treatise, Dogmatic Theology (St. Louis, MO: B. Herder, 1915). 50.

[27] أيوب 1: 6: "بَنِي اللهِ" (بالعبرية: אֱלֹהִים - "إلوهيم").
رومية 8: 15: "قَدْ أَخَذْتُمْ رُوحَ التَّبَنِّي، الَّذِي بِهِ نَصْرُخُ: يَا أَبَا الآبُ

[28] إِسْرَائِيلُ ابْنِي الْبِكْرُ. (خر 4: 22).

[29] فَتَكُونَ كَابْنٍ الْعَلِيِّ (سي4: 11)

مع أن اليهود كانوا يعرفون أن للمسيا صفات إلهية، وردت في الكثير من كتبهم خارج العهد القديم مثل التلمود،[30] إلا أنهم لم يعتادوا أن يصفوه من تلقاء أنفسهم بـ"الله" أو "ابن الله". بل كانوا يدعونه إما "ابن داود"،[31] أو "ملك إسرائيل"،[32] أو "النبي"،[33] أو "المسيّا"، أي "المسيح" (مَشِّيَح מָשִׁיחַ = خْريستوس Χριστός).

ومع ذلك، فقد استنتجوا منطقيًّا من إشارات المسيح المتكررة إلى نفسه كابن الله، أنه يدّعي المساواة في الجوهر مع اللاهوت، أي الألوهية الحقيقية.[34]

وبالمثل، فإن الأناجيل الإزائية، من خلال تضمينها أقوالًا لا يمكن أن تنطبق إلا على ابن الله بالمعنى الحرفي الأدق، أو من خلال اقتران إعلان الإيمان بـ"الابن الحقيقي لله"، تُظهر بوضوح أنها تقصد تطبيق هذا الاسم على يسوع بمعناه الحقيقي، لا المجازي.

فعند معموديته في الأردن،[35] "وَصَوْتٌ مِنَ السَّمَاءِ قَائِلًا: هذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ". والنص اليوناني يقول: Οὗτός ἐστιν ὁ υἱός μου ὁ ἀγαπητός، حيث يُكرَّر أداة التعريف لتأكيد الدور الفريد للابن.

وعند إعلان بطرس إيمانه ببنوّة يسوع الإلهية. متى ١٦: ١٥: "فَأَنْتُمْ، مَنْ تَقُولُونَ إِنِّي أَنَا؟ فَأَجَابَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ وَقَالَ: أَنْتَ هُوَ الْمَسِيحُ، ابْنُ اللهِ الْحَيِّ" (σὺ εἶ ὁ Χριστός, ὁ υἱὸς τοῦ Θεοῦ τοῦ ζῶντος).

وكما هو حال باقي الرسل، كان بطرس قد آمن منذ زمن برسالة المسيّا وكرامته؛ لذا فإن إعلان إيمانه كما ورد في متى ١٦: ١٦ لا يمكن أن يعني إلا: "أنتَ لست فقط المسيح، أي المسيّا، بل أيضًا ابن الله الحقيقي".

ويؤكد هذا الفهم جواب مُخلّصنا: "طُوبَى لَكَ يَا سِمْعَانُ بْنُ يُونَا، إِنَّ لَحْمًا وَدَمًا لَمْ يُعْلِنْ لَكَ، لَكِنْ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ". أي أن معرفة بطرس وإعلانه الإيماني ببنوّة المسيح الإلهية كانا نتيجة إعلان مباشر ونعمة الإيمان.[36]

---

[30] ويُسجّل التلمود أقوالًا تدل على لاهوت المسيح ومساواته للآب مثل: "إنّ كلّ الأنبياء تنبأوا عن المسيح فقط" (Sanhedrin 99a.)، بل وقالوا: "إنّ العالم لم يُخلق إلّا لأجل المسيح" (Sanhedrin 98b.).
حتّى إنّ اسمه "يهوه"، الذي هو الاسم الخاص بالله وحده، ففي مدراش تهليم عن المزامير في تفسير (مزمور21: 1)، مكتوب: "الله يدعو الملك المسيّا باسمه هو. لكنّ ما هو اسمه؟ الإجابة: الرّبّ (يهوه) رجل الحرب" (خروج 15: 3). (Theodore Laetsch, Bible Commentary: Jeremiah, P 193) وفي مصدر يهوديّ آخر، "إيكاراباتي- المراثي في شرح التوراة واللفائف الخمس"، يقول في تعليق على (مراثي 1: 16): "ما هو اسم المسيّا؟ يقول أبا بن كاهانا: اسمه يهوه كما نقرأ في إرميا (23: 6): "وهذا هو اسمه الذي يدعونه به الرّبّ (يهوه)".

[31] متى 9: 27؛ 12: 23؛ 20: 30؛ 21: 9؛ مرقس 11: 10.

[32] متى 27: 42.

[33] يوحنا 1: 21؛ 6: 14؛ 7: 40.

[34] يوحنا 5: 18؛ 10: 33.

[35] متى 3: 13 وما يليه؛ مرقس 1: 9 وما يليه؛ لوقا 3: 21 وما يليه.

[36] Cfr. Schanz, Kommentar über das Evangelium des hl. Matthäus, p. 375, Mainz 1879.

وعندما رأى التلاميذ "فِي وَسَطِ الْبَحْرِ" يسوع يمدّ يده لينقذ بطرس، الذي جازف وسار على الأمواج الهائجة بأمر سيده، غمرتهم هذه المعجزة المجيدة وسجدوا له قائلين: "بِالْحَقِّ أَنْتَ ابْنُ اللهِ".[37]

هذا البرهان تؤكده شهادة المسيح نفسه. فالأناجيل الإزائية تُخبرنا بوضوح، كما يفعل يوحنا وبولس، أن المسيح لم يكتف بإعلان بنوّته الإلهية في كل زمان ومكان، بل ختمها أخيرًا بدمه.

وليس من المبالغة القول إن المسيح قد بذل حياته من أجل حقيقة تأكيده الجليل بأنه هو حقًّا وبالصدق "ابن الله الوحيد".

نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق

تعبير "إله من إله" في قانون الإيمان النيقاوي يُعد من أكثر العبارات كثافة لاهوتية، وقد علّق عليه الآباء بعمق في سياق الرد على الأريوسية وتأكيد ألوهية الابن.

العبارة اليونانية الأصلية هي "Θεὸν ἐκ Θεοῦ" (ثيؤن إك ثيؤو)، وتُترجم عادة إلى "إله من إله" أو "الله من الله". وهي تأتي ضمن سلسلة من العبارات في قانون الإيمان النيقاوي التي تهدف إلى تأكيد أن الابن:

- مولود من الآب، لا مخلوقًا.
- من نفس الجوهر (ὁμοούσιον) مع الآب.

هذه العبارات مجتمعة تهدف إلى نفي تعليم أريوس الذي قال إن الابن مخلوق، وبالتالي ليس إلهًا بالمعنى الكامل.

يكتب إيرينيئوس قبل وجود هذا القانون بحوالي 120 سنة:

> إذًا، فالآب هو رب، والابن هو رب، والآب هو إله، والابن هو إله؛ لأن "ما وُلِد من الله هو إله". وهكذا، في الجوهر وقوة الكينونة، يُعلَن إله واحد؛ ولكن بحسب تدبير فدائنا، يوجد الآب والابن. ولأن الآب، خالق الكل، غير منظور ولا يُدنى منه بالنسبة للمخلوقات، فإن الذين يقتربون إلى الله يجب أن يكون لهم مدخل إلى الآب من خلال الابن.
>
> ويُعبّر داود عن هذا الأمر بوضوح أكثر، إذ يقول عن الآب والابن: "كُرْسِيُّكَ يَا اللهُ إِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ. قَضِيبُ اسْتِقَامَةٍ هُوَ قَضِيبُ مُلْكِكَ. أَحْبَبْتَ الْبِرَّ وَأَبْغَضْتَ الْإِثْمَ. مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ مَسَحَكَ اللهُ إِلٰهُكَ بِزَيْتِ الِابْتِهَاجِ أَكْثَرَ مِنْ رُفَقَائِكَ." فالابن، بكونه إلهًا، ينال من الآب، أي من الله،

[37] مت14: 33 ἀληθῶς Θεοῦ υἱὸς εἶ

كُرسي المملكة الأبدية، وزيت المسحة فوق رفقائه. وزيت المسحة هو الروح، الذي به مُسِح؛ ورفقاؤه هم الأنبياء والرجال الأبرار والرسل، وكل من نال شركة ملكوته، أي تلاميذه.[38]

ويقول القديس أمبروسيوس:

"كل ما للآب هو للابن.. نحن نميز الآب عن الابن في اختلاف الأقانيم لكنهما واحد في القدرة، الواحد في الآخر... مجد الآب لا يضمحل في الابن، وجمال الابن أن يرى فيه كمال الآب، إنهما واحد في القدرة".[39]

ويكتب كيرلس السكندري:

"ليشرحوا لنا كيف يكون ابن داود ربه، ليس لربوبيه بشرية بل لاهوتية. فإن جلوسه عن يمين الآب هو تأكيد وعربون المجد الأسمى. فإذ لهما عرش واحد لهما كرامة واحدة، والمتوجان بكرامة واحدة لهما طبيعة واحدة".[40]

نعم نؤمن بالروح القدس، الرب المحيي

يُرى الروح القدس وعمله في الكتاب المقدس منذ البداية. فالعهد القديم يُخبر عن عمل الروح القدس في الحركة، بدءًا من الخلق. إن روح الرب هو قوة الرب العظيمة، يعمل بطرق متعددة على الأشياء والأشخاص، ليُعلن ويُتمّم مشيئة الله.

ومع ذلك، فإن يسوع علّم كثيرًا عن الجوانب الشخصية للروح القدس، وهي أمور لم تكن واضحة في العهد القديم.

وبعد يوم الخمسين، صار فهم الكنيسة أكثر وضوحًا بأن الله هو روح، وأن الروح الذي يسكن في جميع المؤمنين هو الله ذاته. ليس هذا فقط، بل إن الروح يُشار إليه دائمًا بصيغة شخصية، لا كشيء أو موضوع مجرد. فالضمير الشخصي

[38] Irenaeus, The Proof of the Apostolic Preaching, paragraph 47
[39] In Luc 20: 41-44.
[40] In Luc. Ser. 137.

"هو" يُستخدم للإشارة إليه، وتنسب إليه أعمال شخصية من اختيار وقصد (أعمال ١٣: ٢-٤؛ ١٥: ٢٨؛ رومية ٨: ٢٦؛ كورنثوس الأولى ١٢: ١١)[41].[42]

[41] أعمال الرسل ١٣: ٢-٤ "وَبَيْنَمَا هُمْ يَخْدِمُونَ الرَّبَّ وَيَصُومُونَ، قَالَ الرُّوحُ الْقُدُسُ: افْرِزُوا لِي بَرْنَابَا وَشَاوُلَ لِلْعَمَلِ الَّذِي دَعَوْتُهُمَا إِلَيْهِ. فَصَامُوا حِينَئِذٍ وَصَلُّوا، وَوَضَعُوا عَلَيْهِمَا الأَيَادِيَ، ثُمَّ أَطْلَقُوهُمَا. فَهذَانِ إِذْ أُرْسِلاَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ، نَزَلاَ إِلَى سِلُوكِيَةَ، وَمِنْ هُنَاكَ سَافَرَا فِي الْبَحْرِ إِلَى قُبْرُسَ."
أعمال الرسل ١٥: ٢٨ "لِأَنَّهُ قَدْ رَأَى الرُّوحُ الْقُدُسُ وَنَحْنُ أَنْ لَا يُوضَعَ عَلَيْكُمْ ثِقْلٌ أَكْثَرُ غَيْرُ هذِهِ الْأَشْيَاءِ الْوَاجِبَةِ."
رومية ٨: ٢٦ "وَكَذلِكَ الرُّوحُ أَيْضًا يُعِينُ ضُعْفَاتِنَا، لِأَنَّنَا لَسْنَا نَعْلَمُ مَا نُصَلِّي لأَجْلِهِ كَمَا يَنْبَغِي. وَلكِنَّ الرُّوحَ نَفْسَهُ يَشْفَعُ فِينَا بِأَنَّاتٍ لَا يُنْطَقُ بِهَا."
كورنثوس الأولى ١٢: ١١ "وَلكِنَّ هذِهِ كُلَّهَا يَعْمَلُهَا الرُّوحُ الْوَاحِدُ، قَاسِمًا لِكُلِّ وَاحِدٍ بِانْفِرَادٍ كَمَا يَشَاءُ."
[42] Kenneth E. Jones, Theology of Holiness and Love (James L. Fleming, 1995; 2005). 84".